السنة السابعة والأربعون وأربع مئة

فيها عظُمت نوبة البساسيري، مازال به القائم حتى أحضره الديوان واستحلفه على الطاعة وإخلاص النية، ثم إن الأتراك شغَبوا بسببه، وقالوا: إنه كان يأكل أرزاقنا ولا يوصلها إلينا، وحضروا في الديوان، وضجُّوا منه، ثم استأذنوا الوزير في نهب داره ودور أصحابه، فأطلق لهم ذلك، وقال: هذا قد بان فسادُه. وكاتب صاحبَ مصر، وخلع ما في عنقه من طاعة الخليفة، وأطلق لسانه فيه بالقبيح، وروجع الخليفةُ فيه، فقال: ليس إلا هلاكُه بعد أن سعى في هلاك الدولة، وكاتب أعداءها، فقصد الأتراكُ دارَه بالجانب الغربي بقرب الحريم الطاهري في درب صالح، فنهبوها وأحرقوها وأهدموا أبنيتَها، وقدم السلطان طُغْرُلْبَك رحمه الله بغداد فهرب البساسيري إلى الرَّحبة، ولحق به خلقٌ كثير من الأتراك البغداديين، وكاتب صاحب مصر يذكر كونَه في طاعته، وأنَّه على عزم إقامة الدعوة له ببغداد، فأمدَّه بالأموال والرجال، وولَّاه الرحبة والرقة.

قال المصنف رحمه الله: وحدثني بعض أشياخنا أن أصحاب الخليفة لمَّا نهبوا دار البساسيري وهدموها وأحرقوها وكان بواسط، فخرج أهلُه منها ومعهنَّ زوجته كاشفات الوجوه، ناشرات الشعور، يُنادين بالويل والثبور، وأخذوا كاتبَه ابنَ عبيد النصراني فألقوه في مطمورة، وسُبيتْ نساؤه، فلمَّا بلغه ذلك قال: [من الطويل]

هُمُ هدَّموا داري وجرُّوا حليلتي ... إلى سجنِهِمْ والمسلمونَ شهودُ
وهُمْ مَنعوها أنْ تلوثَ خمارَها ... فللهِ درُّ الدَّهرِ كيفَ يعودُ

فكان كما قال، وسار على الفرات، فنهب الأنبار وهِيت، وصار إلى الرَّحبة، وبعث إلى صاحب مصر يطلب منه شفاعةً إلى القائم، فكتب: نَشْفَع فيه، فكتب القائم على رأس الكتاب بخطِّه: من أنتم؟ من أنتم؟ خبِّرونا من أنتم؟ فحنق صاحبُ مصر، وقوَّى البساسيري بالمال والرجال، حتى أخرج القائم من بغداد، وجرى ما جرى، وكلُّ ذلك مضاف إلى سوء تدبير رئيس الرؤساء.

ذكر دخول طُغْرُلْبَك بغداد:

لمَّا قرُبَ من بغداد انزعج الناس وخافوا، فكتب إلى القائم يقول: إنما قصدُ العبد الخدمةُ الشريفة؛ ليتبرَّك بها، ويسير إلى الحجِّ وعمارة الطريق، ثم يتوجَّه إلى قتال أهل الشام ومصر. فطابت قلوبُ الناس، ولمَّا وصل النَّهروان خرج إليه وزير القائم أبو القاسم وأرباب الدولة لتلقِّيه، ولم يتخلَّف إلا القائم، فلقيه حاجب السلطان ومعه شهري[1]، وقال: هذا الفرس من مراكب السلطان الخاصة، وقد رسم أن تَرْكَبَه. فنزل عن بغلته وركبه، واستقبله عميد الملك أبو نصر الكُنْدُري وزير السلطان ورام أن يترجَّل، فمنعه أبو القاسم، وتعانقا على ظهور دوابهما، ووصل إلى السلطان فأكرمه، وسلَّم عليه عن القائم، فأومأ إلى تقبيل الأرض، وقال: ما وردتُ إلا امتثالاً للمراسيم العالية، ومتميزاً عن ملوك خراسان بالقرب من السُّدَّة الشريفة، ومنتقماً من أعدائها، فقال له الوزير: إن الله تعالى قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشترِ نفسَك ببعضها ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ الآية [القصص: ٧٧] وسأله في الملك الرَّحيم أن يُجريه مجرى أولاده ولا يُغيِّر عليه شيئاً، فإنَّ لأسلافه حقوقاً قديمةً، فأعطاه يدَه على أن لا يؤذيه، وكان دخولُه إلى بغداد في رمضان، وخطب له وبعده للملك الرحيم، ثم قطعت خطبة ابن بُوَيه سلخ رمضان، وحُمِلَ إلى قلعة فاعتُقل فيها اعتقالاً جميلاً، فطُغْرُلْبَك رحمه الله أولُ من ملَكَ العراق من السلجوقية، والملكُ الرَّحيمُ آخرُ مَنْ مَلَكها من بني بُوَيه، وانتهت دولة الدَّيلم، فكانت أيامهم مئةً وتسعاً وعشرين سنة، وعددُ ملوكِهم أربعةَ عشر ملِكاً، فأوَّلهم الثلاثة الأخوة الذين استولَوا على فارس وما والاها، وهم: عمادُ الدولة أبو الحسن علي بن بُوَيه، وكان أكبرَهم، ولم يدخل بغداد، والمستكفي لقَّبه وبعث إليه بالخِلَع. وركنُ الدولة أبو علي الحسن، وكان له أربعة أولاد: عَضُد الدولة، ومؤيَّد الدولة، وفخر الدولة، وأبو العباس، وتوفِّي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاث مئة، فكانت إمارتُه أربعاً وأربعين سنة وشهوراً. ومُعِزُّ الدولة أحمد بن بُوَيه، وهو أول من دخل بغداد من ملوكهم سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة، وتوفِّي سنة ست وخمسين وثلاث مئة، وقام

(١) البرذون الشهري: يتولد بين الرّمكة والفرس العتيق. أساس البلاغة ١/ ٢٥٠.

بعده ولدَه عزُّ الدولة بختيار، ثم ملك عَضُد الدولة سنة ستٍّ وستين، ومات سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة، فكانت إمارتُه على بغداد خمسَ سنين وشهوراً، ثم وَلِيَ ابنُه صمصام الدولة، اعتقله أخوه شرف الدولة وسَمَلَه، وقتله أبو نصر بن بختيار سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة، وملَكَ شرفُ الدولة بن عَضُد الدولة بغداد سنة سبع وتسعين، فأقام سنتين وثمانية أشهر، ثم مات سنة تسع وسبعين، ومؤيَّد الدولة أخو عَضُد الدولة لم يدخل بغداد، ومات بجُرجان بعد عَضُد الدولة بسنة، فكانت إمارتُه أربعَ سنين، ووَلِيَ أخوه فخر الدولة فأقام والياً ثلاث عشرة سنة، ولم يدخل بغداد، ومات سنة سبع وثمانين، ولمَّا مات شرفُ الدولة ببغداد سنة تسع وسبعين عهد إلى ولده أبي نصر بهاء الدولة فأقام حاكماً على بغداد أربعاً وعشرين سنة، وتوفِّي سنة ثلاث وأربع مئة، ووَلِيَ ابنُه سلطان الدولة فيها واستناب جلالَ الدولة سنة خمس وثلاثين وأربع مئة، وكان لجلال الدولة الملك العزيز، ثم وَلِيَ أبو كاليجار المَرْزُبان بن سلطان الدولة، ومات سنة أربعين وأربع مئة، وقام بعده ولده الملك الرَّحيم، وبه زال ملكُهم، وفي ثاني شوال نزل السلطان دار المملكة، وتفرَّق أصحابُه في دور الأتراك والناس، واستدعاه القائم، فقبَّل الأرضَ بين يديه، ونصب له كرسياً، فلم يقعد عليه، فأقسم عليه، فجلس وخلع عليه الخِلَع السلطانية المعهودة وزاده، وخطب له على المنابر، ولقَّبه ركن الدولة شاهنشاه، وقُرِىء عهدُه بين يدي الخليفة، ثم عاد إلى دار المملكة وجلس للتهنئة، ثم نظر في إقطاع الخليفة فاستقلَّه، فزاده في كل سنة خمسين ألف دينار وخمس مئة كُرٍّ غَلَّةً، وزاد الوزير خمسة آلاف دينار وخمسين كُرًّا، وزاد الحُجَّاب والخدم وغيرهم، وقال: واللهِ لولا أنَّ هذه البلاد تحتاج إلى العساكر وكثرة الأعداء لمَّا تعرَّضْتُ لملك العراق، وكان كتب بعضُ شعراء العراق إلى طُغْرُلْبَك رحمه الله إلى خراسان: [من الخفيف]

العراقَ العراقَ يا طُغْرُلْبَكي ... سِرْ إليها ولو تلكَّمْتَ فَكِّي
قد سَئِمنا ملكَ الدَّيالمِ فينا ... فعسى بملكِ المالكِ تُرْكي

فقوي عزمُه على ذلك، فصعد العراق، وقبض على أبي الحسن بن سعيد بن نصر النصراني ـ كاتب البساسيري ـ وأموالِه وأسبابِه، وحُمِلَ إلى دار الخليفة، وكان في عسكره ثمانية أفيلة، وعسكرُه ستين ألفاً.

وفي عاشر ذي القعدة قُلِّد الخليفةُ محمد بن علي الدامغاني قضاءَ القضاة، وخَلَع عليه السلطان أيضاً.

وفيها استولى أبو كامل علي بن محمد الصُّلَيحي[(١)] على اليمن، وانتمى إلى صاحب مصر وخطب له، وأزال خطبة القائم في بلاد اليمن.

وفيها تُوفِّي

الحسين بن علي[(٢)]

ابن جعفر بن عَلَّكان بن محمَّد بن دُلَف، أبو عبد الله، العجلي، القاضي، ويُعرف بابن ماكولا، من أهل جُرْباذقان، ولد سنة ثمان وستين وثلاث مئة، وولي قضاء البصرة، ثم استدعاه القادر سنة عشرين وأربع مئة فولَّاه القضاء على بغداد، وولي القائمُ فأقرَّه إلى حين وفاته، وكان شافعياً، مَهيباً، نَزِهاً، عفيفاً، لم يُرَ قاضٍ أعفَّ ولا أنزهَ منه ولا أشرفَ نفساً.

قال ابن عبيد المالكي وكيل القائم: أمرني الخليفة أن أحمل نَبْقاً عيَّن عليه في مراكن إلى النقيبين وقاضي القضاة ابن ماكولا، وإلى جماعة، ففعلتُ، فكلُّهم قبِل غير ابن ماكولا واجتهدت به فلم يفعَلْ، فعُدْتُ بالنَّبْق وكتبتُ إلى الخليفة بشرح الحال، فلمَّا قرأ الورقة جعل يقول: ما أغثَّه! أتُرى تقع لي إليه حكومة فيحابيني فيها؟!.

ومن شعر ابن ماكولا يقول: [من الوافر]

تصابى بُرهةً من بعدِ شيبٍ ... فما أغنى المشيبُ عن التَّصابي
وسوَّدَ عارضيه بلونِ خَضْبٍ[(٣)] ... فلم ينفَعْهُ تسويدُ الخِضابِ
وأبدى للأحبَّةِ كلَّ لُطفٍ ... فما ازدادوا سوى فرطِ اجتنابِ
سلامُ الله عوداً بعد بدءٍ ... على أيامِ رَيعانِ الشَّبابِ

---

(١) تحرف في (ف) إلى: الصيلحي، والمثبت موافق لما في المصادر، والخبر مع الذي قبله في المنتظم ١٥/ ٣٤٩ـ٣٥٠.

(٢) الترجمة بتمامها في المنتظم ١٥/ ٣٥١ـ٣٥٢، وببعضها في تاريخ بغداد ٨/ ٨٠.

(٣) في (ف): خطر، وفي المنتظم: خضر.

تــولَّــى غــيــرَ مــذمــومٍ وأبــقــى ... بــقــلــبــيَ حــســرةً تــحــت الــحــجــابِ

وتوفِّي في شوال ودُفن في داره بحريم الخلافة قريباً من باب العامة، وولي القضاء سبعاً وعشرين سنة.

[وفيها تُوفِّيت

سُتيتة بنت القاضي أبي القاسم(١)

عبد الواحد بن محمد بن عثمان، المعروف بابن أبي عمرو.قال الخطيب: كانت فاضلةً زاهدةً عابدةً صالحة، توفِّيت في رجب، وسمعت أبا القاسم عمر بن محمد بن سنبك وغيره، وكتبتُ عنها].

[وفيها تُوفِّي]

علي بن المُحسِّن(٢)

ابن علي بن محمد بن أبي الفهم، أبو القاسم، التنوخي، ولد بالبصرة في شعبان سنة خمس وسبعين وثلاث مئة، وأول سماعه سنة سبعين، وقُبِلتْ شهادتُه عند الحكَّام في حداثته، وتقلَّد القضاء في عدة نواحي منها المدائن ودَرْزيجان(٣) وقِرْمِيسين وغيرها، وسمع الحديث الكثير، وصنَّف الكتب، وتوفِّي ببغداد في المُحرَّم، ودُفِنَ بداره في درب التل، وكان صدوقاً، محتاطاً في الحديث. وقيل: كان معتزلياً يميل إلى الرفض.

[وفيها تُوفِّي] .

محمد بن القائم بالله(٤)

ذخيرة الدين، أبو العباس، كان قد نشأ نشوءاً حسناً، ورشَّحه القائم للخلافة، فتوفِّي في ذي القَعدة، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً، وخرج بنفسه فصلَّى عليه وبينه

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ١١٥، والمنتظم ١٥/ ٣٥٣.

(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٤٤٦، وفي المنتظم ١٥/ ٣٥٣.

(٣) دَرْزيجان: قرية كبيرة تحت بغداد على دجلة. معجم البلدان ٢/ ٤٥٠.

(٤) المنتظم ١٥/ ٣٥٣.

وبين الناس سرادق وهم يصلون خلفه بصلاته، وجلس رئيس الرؤساء للعزاء ثلاثة أيام، وحضر أرباب الدولة، ومنع القائم من ضرب الطبول ثلاثة أيام، وكذا السلطان، فلمَّا كان اليوم الرابع حضر عميد الملك وزير السلطان بين يدي القائم، وأدَّى عن السلطان رسالةً تتضمَّن التعزيةَ والسؤالَ بقيام الوزير والجماعة من مجلس التعزية، فقاموا، ثم حُمِلَ تابوتُه بعد ذلك إلى الرُّصافة.

السنة الثامنة والأربعون وأربع مئة

فيها من أول هذه السنة ابتدأ أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابىء الكاتب ـ ويُسمَّى غرس النعمة ـ تاريخَه وذيلَه على تاريخ أبيه هلال، وزعم أن تاريخ أبيه انتهى إلى هذه السنة، فقال: وفي أول سنة ثمان وأربعين وأربع مئة يوم الخميس عقد عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكُنْدُري وزيرُ السلطان رُكنِ الدين طُغْرُلْبَك أبي طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق لتاج الملوك أبي كاليجار هزارسب بن بَنكير بن عياض الكردي على ضمان البصرة والأهواز وأعمالها لهذه السنة، بثلاث مئة ألف دينار وستين ألفاً، وأُطلِقَتْ يدُه في جميع الإقطاعات والمعاملات بالبصرة وخوزستان، وأُقطِعَ أَرَّجان، وأُذِن له في ذكر اسمه في الخطبة بهذه الأعمال دون غيرها، وعرَفَ الدَّيلم البصرية والخوزستانية الواردون إلى باب طُغْرُلْبَك، فقلقوا، فقال السلطان: يفعل تاج الملوك فيها ما يراه. فانصرفوا وقد يئسوا، وثقُلَ ذلك على الأمير أبي علي بن أبي كاليجار بن بُوَيه؛ لأنه كان ورد باب السلطان مؤمِّلاً لذلك، وراسل السلطان بزوجته وولده بحكم قرابتهما منه، وكان السلطان قد زوَّج أخاه فلم يُجِبْه، وعوَّضه قُوماسين إقطاعاً عوضاً مما أخذ منه، وخرج جماعة من الغلمان البغدادية إلى البساسيري، فغمز عليهم، فكمن لهم خُمارتِكين الطُغْرُلْبي خادمُ السلطان ومعه جماعة بأمر رئيس الرؤساء، فقتلوهم وكانوا أكثر من عشرين من الأعيان والمُقدَّمين، فلم يُفْلِتْ منهم إلا قليل، ولم يتجاسر أحدٌ من أهل المُقتَّلين بقربهم من رئيس الرؤساء، فغُسِّلوا في سقاية بباب الأزج ودُفنوا.